

ذكريات رحلة من مدينة الجزائر إلى قسنطينة عبر المناطق الجبلية.

تأليف: علي رضا باشا.

تقديم وتعريب: علي تابليت

معهد الترجمة

جامعة الجزائر

يسعدني أن أقدم للقارئ هذه المذكرة التي تركها لنا علي رضا باشا، ابن حمدان خوجة، تحت عنوان: «ذكريات رحلة من مدينة الجزائر إلى قسنطينة».

وقد حرّرها أصلاً باللغة العربية، وترجمها نحو الفرنسية (Saulcy (Félicien de

وقد بحثنا عن الأصل في مخطوطات صولسي فلم نعثر عليه. (1)

لذلك رأينا أنه من الفائدة إعادة ترجمتها إلى لغتها الأصلية، العربية، وحاولنا أن نقدمها للقارئ بلغة سليمة. ونأمل أننا قد وفقنا إلى حد ما.

أما مناسبتها فهي أن الدوق دوروفيفو، طلب من حمدان خوجة أن يكون وسيطاً بين الحاج أحمد باي والدوق دوروفيفو، وذلك في فترة أوت-ديسمبر 1832.

فصحب علي رضا والده في الرحلة وقام بوصف المناطق والقرى والجبال التي قطعها حتى وصلا قسنطينة، ثم عادا بعد ذلك عن طريق البحر من عنابة إلى الجزائر.

ثم عاد والده لوحده مرة ثانية في جانفي 1833. (2)

ولحمدان خوجة ثلاثة أولاد، علي وحسن وبنّت لا نعرف إسمها.

أما حسن فقد صدر في حقه قرار بطرده من وطنه إلى الإسكندرية، بمصر، في عهد الحاكم العام بالجزائر، كلوزال. يوم 26 سبتمبر 1836. (3)

أما فيما يتعلق بحياة علي رضا، فهو من مواليد 1236/هـ الموافق 1820م بمدينة الجزائر، توجه علي إلى باريس مع والده بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر في حدود 1833. ولم يلبث والده أن سافر إلى إستانبول بعد أن ينس من كل المحاولات لإستعادته أملاكه التي صادرها الفرنسيون عام 1836.

بقي علي رضا بباريس عند السفير العثماني السيد: مصطفى رشيد باشا، الذي أدخله إلى ثانوية عسكرية، حصل على رتبة اليوز باشى، أي نقيب، سافر بعدها إلى إستانبول، ثم ترقى في الرتب العسكرية تدريجيا إلى أن وصل رتبة، ميرالاي، أي العقيد.

شغل عدة مناصب هامة في الدولة العثمانية منها على سبيل المثال:

- عضو في رئاسة أركان الحرب.
- تولي رئاسة المدرعات المدفعية
- عضو في مجلس التنظيمات العسكرية
- عضو في دائرة مجلس الشوري للشؤون العمومية.
- عين مشيرا ووزيرا كذلك.
- عين والي طرابلس الغرب مرتين.
- عين والي مدينة بورصة مرتين كذلك.

ومن مؤلفاته غير هذه الرحلة، كتاب أسماه «مرآة الجزائر» كتبه باللغة العربية، ثم ترجمه الأستاذ علي شوقي إلى التركية، العثمانية، وطبع في إستطنبول عام 1293/هـ 1876م.

عاد إلى إسطنبول قبل وفاته، حيث توفي إثر مرض أصابه في صدره، في 16 ذو الحجة 1293هـ/ 3 نوفمبر 1876م. ودفن إلى جوار الصحابي أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنهما، ولمزيد من المعلومات على هذه الشخصية الجزائرية، البحث في الأرشيف العثماني لرئاسة الوزراء باستانبول.

وكتاب، مرآة الجزائر، مهم للغاية، إذ يتحدث بإسهاب عن الموريسكيين في الجزائر، من صفحة، 2- 18، 28 - 30، 48- 49. كما تكلم عن أحمد باي:

أما والده حمدان خوجة، فقال عنه الدكتور عبد الجليل التميمي، من تونس الشقيقة. تحت عنوان «نشاط حمدان خوجة في باريس واستانبول من أجل القضية الجزائرية» لقد كان حمدان رجلا عالما يتقن العربية والتركية والإنجليزية ويتكلم الفرنسية» ومثقفا ثقافة واسعة ويعتبر من الرجال النزهاء المتدينين، وقد دافع عن الجزائر بقلمه وفكره (وماله) هذا الدفاع الذي لا يقل أهمية عن دفاع الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر، بل إن النشاط الذي أظهره حمدان خوجة في كل من باريس واستانبول بعد أن تجاوز الستين من عمره، لا نجد له نظيرا في تاريخ الجزائر أثناء الفترة العثمانية وحتى الفرنسية وأن الجزائر بل المغرب العربي كله ليعتبر حمدان خوجة أحد أعلامه الكبار ورجاله ومثقفيه الذين دافعوا عن المغرب بكل ما أوتوا من قوة ورأي... (4).

عندما رأى والدي أن الفرنسيين يخشون أن يكون معاديا لمشاريعهم، وأيقن بأن وشايات اليهود وغيرهم من الأشرار كانت سبب هذا الحذر، وذلك لمجرد كونه يميل إلى الأتراك ولكون هؤلاء الدايات الأتراك قد أحسنوا معاملته بدون استثناء، أصابه الحزن، لقد كان اليهود يترددون على بيته يوميا ويقولون له: «أعطنا المبلغ الفلاني، وإلا سينفيك الجنرال إلى مالطا أو مكان آخر،» (وهذا ما كان بالفعل، يحصل للآخرين). كنا نغدق الأموال على من نخشى بأسهم ونرد كيد الآخرين.

لكن عندما أتى الدوق دي روفيفو Duc de Rouvigo وأراد أن يرسل مبعوثا إلى الحاج أحمد باي، ليعرض عليه السلام، طلب من حاشيته أن تدله على من يستطيع من بينهم تأدية هذه المهمة. لم يجد من بينهم أحد للقيام بذلك لأنهم كانوا كلهم عديمي القيمة، مجرد مجهولين لانفوذ لهم، ويعود الفضل في رقيهم الاجتماعي إلى وصول الفرنسيين. وهكذا أدت بهم حيرتهم إلى الطلب من أبي أن يدلهم على من يوسعه حسب رأيه، أن يقابل الحاج أحمد. رد عليهم أبي قائلا: «لقد كنت صديقا له، لكن مجرد صديق سياسي، أي أن الأتراك عندما كانوا أولياء الأمر هنا كانوا ينظرون إليّ بعين الرضى. والسبب في ذلك هو أن البايات عندما كانوا يزورون مدينة الجزائر، وهو أمر كان عليهم القيام به كل سنة، كان ينقصهم أحيانا مبلغ الجزية والهدايا الواجب تقديمها، وكنت أريحهم من ذلك واستلم في المقابل القمح والجلود كتسديد، وأرسل ذلك إلى عنابة وليفورن. كان الحاج أحمد إذا يكن لي كل الود عند ما يريد الإستلاف. وإلى غاية اليوم فهو مدين لي بمبلغ مائة ألف «بوجو» وكلما طالبت به بدفع ما عليه من دين إلا وأستاء.

كنت كلما فعلت ذلك وكأني أعرض الجلد كما يقول المثل.

غير أن أبي اعتقد بأن أحسن سبيل للخلاص من الوضع الحرج الذي يوجد فيه واخماد شكوك الفرنسيين إذا... يتمثل في تعريض نفسه لخطر أكيد بعبوره للجبال وتولى هذه المهمة.

وعليه ذهب لمقابلة الدوق دي روفيفو وتحدث معه بخصوص هذا الأمر قائلا: أنا سأذهب عند الحاج أحمد وسأفعل كل ما تريدون. وفورا تلقى الأمر بالرحيل وغادر - المدينة في اتجاه الريف. لم أكن وقتها أعلم شيئا ولم يكن أحد من العائلة يتوقع - ما سيحدث. بل لم يكن أحد، في مدينة الجزائر نفسها على علم بالمهمة التي أسندت إلى أبي.

عندما وصل كنت أغرس الأزهار ولمحت على وجهه علامات الإنشغال العميق.

واحتراما منى للتقاليد المقدسة لدينا لم أجراً على محاولة معرفة سبب ذلك الإنشغال. واكتفى أبي بالقول: تأهب للرحيل غدا معي إلى جرجرة لنزور الشيخ بن عيسى. أثلج نبأ هذا الرحيل صدري لأن الملل المترتب عن الحمول كاد أن يكتنم أنفاسي.

وذهبنا في الليلة التالية للبحث عن أحد خدم الشيخ بن عيسى كان قد قدم إلى مدينة الجزائر لبيع بعض البضائع واقتناء بعض الحاجات، وفور ملاقاته بدأنا نشد الرجال، وذهبت لتوديع أسرتي وأصدقائي.

بدأت رحلتنا في منتصف فصل الصيف وسط حرارة وقاكم الله شرها! أمتطينا بغالنا في منتصف الليل وأنا أجهل تماما أننا سنتجه إلى قسنطينة.

وعندما حان وقت الرحيل قلت لأبي: دعنا من هذه البغال ولنأخذ جيادا. هذا أحسن. فأجاب قائلا: غرضي أن أتسلق الجبال، والبغال أحسن مطية لمواجهة الطرق التي سنسلكها. رفض إذا السماع إليّ ومشينا طول الليل واليوم التالي. أبى القبائليون الذين اصطحبناهم تركنا نقضي الليلة - بسهولة النتيجة لأن سكانها، على حد قولهم، لصوص واكتفين بتناول الغذاء عند الحاجة. (1)

كنت أحسن لغة القبائل وكلما استعملها رفاقنا للكلام عنا فهمت قصدهم تماما وترجمت كلامهم لأبي.

بدأنا نتسلق الجبال عندما وصلنا حدود المتيجة، ووطأنا الأرض لتغذى في «دوار» يتميز بطيبة سكانه الذين أحسنوا استقبالنا. وسألونا عن هويتنا فرد عليهم أبي وقال لهم: أنا ذاهب لزيارة شيخ لاغير. وهكذا علمنا أن الشيخ غائب وأنه في رحاب بني جنّاد لحملهم على التصالح مع القبيلة التي تقطن بالجبال المتاخمة لجبالهم.

وبخصوص بني جنّاد فإنه حدث لديهم شيء لم يكن الفرنسيون على علم به رغم أهميته. إذ تتوفر أراضي هذه القبيلة على غابات خلافة أراد الداوي حسين باشا سنة 1824، إستغلالها للحصول على خشب البناء. كانت قبيلة بني جنّاد تقدر الأشجار العتيقة الموجودة في غاباتها إلى درجة ذبح الخرفان قربانا تحت ظلالها كما لو كانت معبدا، ولذا رفضت رفضا قاطعا التفریط ولو في شجرة واحدة. وهكذا قرر حسين باشا الحصول بالقوة على مالم ينله بالود. وتم إرسال جيش جزائري بقيادة يحيا آغا الذي كان يعد من بين أحسن الجنرالات في الجزائر. صحبة الحاج أحمد كمجرد هاو، إذ أنه لم يكن آنذاك يشغل أي منصب في جهاز الدولة.

وبعد الكرّ اضطر الجيش إلى الفرار ووقع في كمين نصبته قبيلة بن جنّاد إذ استقبله وإبل من الرصاص أجبر كل الجنود بما فيهم الآغا نفسه على المشي مختفيا وراء الجياد، ما عدا الحاج أحمد الذي رفض النزول من على جواده وواصل طريقه كما لو لم يحدث شيئا رغما أنه قد أصيب برصاصة. وبعد زوال الخطر راح كل واحد يسهب في الحديث عن برودة دم الحاج أحمد الجديرة بإثارة الإعجاب.

كان عمى القايد يوسف بجابنه عندما بدأت فرقة الآغا الموسيقية تعزف قطعة عسكرية، وقتها قال الحاج أحمد، الذي تأثر كثيرا لسماع القطعة الموسيقية: «لو بإمكانني سماع مثل هذه الموسيقى تعزف لي وحدي لمدة عشرة أيام أموت مرتاحا».

بعد عشرة أيام بالتحديد، أسند حسين باشا وظيفة بايلك قسنطينة، التي لم يكن بوسع أحد توليها نظرا إلى صعوبة تسيير البلاد، إلى الحاج أحمد. وبلا شك كان لولادة الحاج أحمد، التي أتت من قسنطينة إلى الجزائر وكيسها ملىء بالمال، بعض التأثير على إرتقاء إبنها سلم السلطة.

عندما كنت بقسنطينة، حيث أعيش غالبا، كانت لاتزال على قيد الحياة. والشيء الذي لفت انتباهي إليها، هو عدم ارتدائها الحجاب أبدا رغم كثرة خروجها. وهكذا اضطررنا إلى تغيير طريقنا بغية لقاء الشيخ، ومشينا مدة ثلاثة أيام. كان أبي الذي بلغ سن الشيخوخة في غاية من الإرهاق غير قادر على السير ليل نهار، رغم كل محاولاته لإخفاء ذلك. وبدأت أخبار الشيخ تصلنا عندما اقترنا من جبال بني جنّاد وعلمنا أنه في رحاب قبيلة مجاورة. وأخيرا، وفي اليوم التالي، وصلنا إلى قبيلة وجدنا بها جمع كبير من القوم بباب «قربي» وعلمنا من الرجال الذين اصطحبناهم أن الشيخ موجود بالداخل. وكم كانت غبظتنا كبيرة لوصولنا سالمين لأننا كنا نخشى على أنفسنا من قطاع الطرق وغيرهم لاسيما أننا كنا مجردين من السلاح، مسلمين أمرنا لله. واستقبلنا عند دخولنا إليه بحفاوة وعينان مليئتان بالدموع. إذ

كان يعرف والدي منذ زمن طويل. كان الجو حار لا يطاق، والشيء الطريف الذي أثار انتباهي هو أنني رأيت أحد الخدم واقفا أمام الشيخ يهويه بلا تعب، بمروحة كبيرة من ريش الطير. كان كم قميصه ملوياً إلى غاية الإبط لكي لا يعوق عمله، ذلك أن القوة التي كان يضعها في كل حركة تعادل قوة من يضرب بالعصا بكامل جهده.

جلسنا بجانبه وسط جمع من القبائل قدرت سن الشيخ بحوالي سبعين سنة. كان منحنياً، طلق المحيا، مزدان الوجه بلحيه جميلة. ومن الأكيد أنه كان وسيماً قبل الشيخوخة. كانت ثيابه في غاية النقاء، خلافاً لثياب المحيطين به التي كانت في غاية القذارة.

بدأ القبائل يتهافتون على الكوخ وكل عائلة معها من المؤونة ما يكفي لتغذية الجميع. وتتمثل هذه الأغذية في دجاج مغلى وكسكسى وأواني من الخشب مليئة بالكعك العائم في العسل الساخن. ومع توالى العائلات سرعان ما تمت تغطية أرضية البيت بكاملها. بدأنا بالوجبة التي أعدها صاحب البيت الذي جلس مع الضيوف دون تناول أي شيء، لمجرد أنه يجثهم على الأكل. كان يوجه ضربات ودية لكل الدين يرفضون الأكل لكونهم شعبانين لكي يواصلوا الأكل.

لم نكن نعرف أنا وأبي تقاليد المنطقة ولذا أكلنا كثيراً من الوجبة الأولى اعتقاداً منا أننا لن نلمس بقية الأكل وأن الشيخ سيحتفظ بها لنفسه. غير أنه بمجرد ما انتهينا حل محل رب البيت الأول رب بيت آخر، سرعان ما بدأ هو الآخر يحثنا على الأكل مهما كانت احتجاجاتنا. «لا ينبغي أن تأكلوا ولو اقتضى بكم الأمر فتق بطونكم».

وتوالى الأطباق الواحد تلو الآخر، وكلما وصل دور رب أسرة جديد إلا وحتم علينا أن نزيد في انتفاخ بطننا إلى درجة الاعتقاد بأننا شعبنا إلى الأبد. وبما أننا لم نكن متعددين على ذلك، مرض أبي طوال الليل، لاسيما بعد أن تناول الكسكس بعد العسل الساخن.

عندما انتهى الجميع من الأكل، جاء أصحاب البيت وأدخلوا الشيخ إلى جناح النساء لكي يقرأ كلمات على حبات الشعير التي سترتديها ربة البيت حول عنقها بغية الإنجاب. وعند خروجنا من البيت أنقض جمع منهم على الشيخ فأخذوه بين أيديهم إلى أن وضعوه فوق بغلته. عندها لاحظت أن بغال الشيخ عارية الأذنان من الشعر فسألت عن سبب ذلك بالحاح فكان الجواب في نهاية المطاف أن كل الشعر ذهب بين أيدي النساء اللاتي يحتفظن به كشيء مقدس.

بعد ذلك اصطف القبائل والبدو على حافتي الطريق ولم يبق في الوسط سوى الشيخ وأبي وأنا. وبدأ الجميع يردد شهادة أن لا إله إلا الله بأعلى صوت. طوال الطريق بالتداول.

ووجدنا أنفسنا وسط ما يقرب ثلاثة آلاف شخص. وكلما مررنا بدشرة إلا وحاول السكان انزال الشيخ من على مطيته لإستضافته، وكلما رفضوا زادوا إلحاحاً. وهكذا نزل في نهاية المطاف عند رغبة سكان القرية وبدأ نفس البروتوكول. الغذائي مع بعض الإصرار. والغريب في الأمر هو أن هؤلاء الناس لا يموتون من التخمة.

قضينا طوال اليوم في الركوب والنزول والأكل وتلقي الكلمات الودية إلى أن التمسنا من الشيخ عدم تلبية رغبات كل الذين يريدون الإحتفاء به. كلما مررنا بدشرة صغيرة. خرج نساؤها وأطفالها وكلابها وتعالى هتافاتهم وزغاريدهم ترحيباً بموكبنا.

صعدنا أمام مثل هذه المعاملات طيلة أربعة أيام بكاملها، مرّ فيها الشيخ بالذرة تلو الأخرى. وعندما وصلنا إلى قمة جبل بني جناد بدأ الشيخ يتكلم للقبائل عن السلام ولم يلبث أن أقنع الجميع بضرورة التعايش وأعاد الوفاق والوئام بينهم. وواصلنا طريقنا إلى أن بلغنا جبال جرجرة حيث توجد عائلة الشيخ وحريره.

نزل بنا الشيخ في قبة سيدى عبد الرحمان الجميلة التي تنطوي على ضريح محاط بسياج خشبي مدهون بألوان حادة كالأحمر والأصفر والأسود والأزرق والأبيض، وأعلام في كل ركن من أركان القبر. أما في القبة فتوجد خمسة ثريات أكبرها منصبة في الوسط. ويجوار هذا القبر هناك قبور أخرى دفن فيها بعض المشايخ.

في ذلك المكان، أمر الشيخ بإعداد أفرشة مريحة ننام عليها. كنت قد أعطيت الغطاء الصوفي لأبي عندما كنا في الطريق ولم أحتفظ سوى بالبرنوس. وعادة كنت أضع صخرة تحت رأسي كوسادة وأنام بين حوافر بغالنا خوفاً عليهم من السرقة، وبمجرد ما التقينا بالشيخ زالت مخاوفنا على أمتعتنا واستفدنا من فراش مصنوع من الحلفة، وضعت الصخرة على أحد أطرافه ولويته عليها. وفي الغد الباكر واصلنا طريقنا.

إلى حد الآن لم تكن لدي فكرة عن رحلة قسنطينة، إذ أنني كنت أعتقد أننا سنعود إلى مدينة الجزائر. لكن أبي صارحني في الغد قائلاً: نحن ذاهبون إلى قسنطينة عند حاجي أحمد، عادت إليّ وقتها مخاوفني وقلت لأبي: أننا نتعرض لخطر كبير، ومن الأكيد أن حاجي أحمد سيأمر بقتلنا، وكان رده: نحن في رعاية الله. قلت، ونعم الرعاية، لكن لا ينبغي على الإنسان أن يلقي بنفسه من النافذة ثم يقول: أضع نفسي تحت رعاية الله فالله يقول في كتابه العزيز: « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » وعندما أيقنت أن - أبي عاقد العزم على القيام بهذه الرحلة كتبت إلى الجزائر وودعت كافة أصدقائي يقينا مني أن الأمل في العودة قد ضاع.

مكثنا عند الشيخ طيلة أسبوع قضاه في كتابة رسائل إلى الشيوخ الذين يتوقع أن نمر بديارهم وأوصى كل واحد منهم بما يلي: أوصل حامل هذا الجواب إلى فلان، الذي سيوصله بدوره إلى فلان، وهكذا دواليك إلى غاية الوصول إلى قسنطينة.

وعندما حان وقت الرحيل لاحظت أن أبي يتأهب للإنتلاق دون حمل أية أسلحة، شأنه في ذلك شأن القبائل الذين يرافقوننا، فقلت لأبي: كيف تريد منا أن نقذف بأنفسنا صوب أكبر المخاطر دون حمل أية أسلحة. وأجابني ثانية: نحن في رعاية الله. غير أن هذا الرد الهادئ لم يزل مخاوفني كلياً. وطلبت من الشيخ أن يعطيني سيفاً ومسدسين وما يقرب من ألف رصاصة، ثم وضعت كل ذلك بكيفية تجعله في متناول يدي كلما دعت الحاجة إلى استخدامه، عندها عادت إلى ثقتي بعض الشيء.

بدأنا السير بعد توديع الشيخ وقضينا يومنا في تسلق الجبال. وصلنا إلى ذرة وجدنا بها أحد الشيوخ الذين أوصاهم الشيخ بن عيسى برعايتنا، فأحسن استقبالنا وقبل قراءة الجواب الذي حملنا معنا أخذه فقبّله ووضع على رأسه ثم رفع يده وأخذ يدعو الله. وبذلك أيقنت أن رسائل الشيخ بن عيسى ستكون لنا أحسن عون.

في الغد أمر الشيخ الذي نزلنا في ضيافته اثنين من رجاله المسلحين بامتطاء جوادين ومرافقتنا، فاصطحبنا هؤلاء إلى أن وصلنا دشرة أخرى تقع وسط الجبال. وهناك ألقى علي القبض بسبب ما يلي: عندما كنا بمدينة الجزائر كانت عندي بغلة جد جميلة، غالية الثمن، أعطاني إياها حاجي أحمد، كانت أجمل بكثير من كافة نظراتها بالمدينة. ولما دخل الفرنسيون المدينة تم نهب ضيعتنا وسرقت بغلتي ولم أجد لها أثر طيلة سنة كاملة وفي يوم من الأيام زارني الحداد وقال لي: لقد رأيت اليوم بغلتك وهي مارة بباب عزون وكانت محملة بالزيت. عندها جريت إلى سوق الزبوت وتفحصت البغال فوجدت بغلتي، وبما أنها كانت من عادتها إذا اقترب منها إنسان وأراد لمس رأسها فإنها تلف وتضرب برجليها الخلفيتين، عرفتُها من ذلك رغم أنها تغيرت وأصبحت نحيفة. أخرجتها وأرغمت صاحبها على الذهاب معي عند القاضي. كان معي عدد من الشهود الذين يعرفون بغلتي، مما ساعدني على استرجاعها والعودة بها إلى الإصطبل حيث أغلقت عليها الباب وانصرفت فرحاً باسترجاعها. وعند غروب الشمس عدت إلى الإصطبل لآخذ بغلتي معي إلى البادية فوجدت الباب موصدة لكن البغلة قد اختفت. ومكثت سنة أخرى دون العثور عليها إلى أن صادفتها عند بدوي آخر، لذا قررت بيعها بسرعة لأخلص من وجع الدماغ بشأنها.

- لنعد الآن إلى حديثنا. ذهبت ذات يوم ونحن لا نزال مقيمين بالجبال، لزيارة السوق وبينما كنت أتحول وسط القبائل وأتبصر تجارهم وجدت نفسي وجها لوجه مع سارق بغلتي الذي اقتص لي القاضي منه، كنت مرتديا الزي البدوي فبقي يحذق النظر في وجهي ليتأكد من شخصي. وعندما عرفني اقترب مني وقال لي: أنت الذي أخذت مني بغلتي من غير حق واليوم ها أنت تقف أمامي. سأنتقم منك ! سألني عن البغلة ولما لم أجد بدا أجبت قائلاً: نعم أنا الذي أخذت منك بغلتك. لكنني أخذتها قانونياً وذلك بناء على شهادات الشهود. استعنت في ذلك بالعدالة الفرنسية، واليوم سأخضعك للعدالة القبائلية. وفجأة وجدت نفسي محاطاً بالقبائل. كنت أبديو وسطهم كالعلامة البيضاء على ظهر بقرة سوداء، فأخذوا يصرخون وأسرعوا للإستلاء على بغلتي وأمتعتي قبل قتلي. ولما وصلوا إلى المكان الذي كان فيه أبي اقتربوا من البغلة. كنا يومها في صحبة شيخ من الجبال التي غادرناها. وعند سماع هذا الأخير الضجيج اعتلى صخرة كبيرة وصاح بأعلى صوته: يا عرب! يا قبائل! ويح من تسول له نفسه مد يده على هؤلاء الرجال!

إعلموا أنهم جاءوا من عند الشيخ بن عيسى وأنهم في حمايتي. لو أخذتم منهم إبرة نأخذ منكم قلادة.

قال ذلك بلغة القبائل ولم يفهم أبي كلامه فترجمت له.

كرّر الشيخ ثانية: لو يمسه أحدكم سينقظ عليكم كافة سكان الجبل الذي يظهر أمامكم ويبيدونكم عن آخركم. عندها بدأوا بالإنسحاب الواحد تلو الآخر ولم يبق سوى سارقي الذي نظر إلي وتوعدني رافعا إصبعه: لو لم تكن رفقة هذا الشيخ لقتلتك شرّ قتل!

بعد هذه الحادثة نصحنا العرب الذين كانوا معنا بالتوجه فوراً إلى الجبال، المقابلة لنا والتي كنا ننوي قضاء الليل فيها لأن الشيخ بن عيسى قد أعطانا جواباً للشيخ الذي نقيم عنده. وصلنا في غاية من التعب. وكلنا ارتياحاً لنجاتنا من هذه المصيبة. أراد أبي أن أحضر له القهوة وفطبت النار، لكن الجواب كان أن النار لا توجد سوى في جناح، النساء. دخلت إذاً الجناح المذكور فوجدت فعلاً النار وحولها جمع من النساء. عند رؤية الفناجين بقين مبهورات وأخذن ينظرن إليها بإعجاب لأنه لم يسبق لهن رؤية مثلها فسألن عن كنهها. وعندما شرحت لهن كيفية استعمالها بقين حائرات. لاسيما بدون سكر. قدمت لهن قليلاً من القهوة وبعد أن ذقتها كان انطباعهن بأنها مقبلة. رأيت من بينهن نساء لم يسبق أن صادفت مثلهن في الجمال، عيون كالفناجين ووجوه سمحة. بقيت أتأمل جمالهن اللواتي أعجبني بهن.

قضى زوج سيدة البيت ليلة في الحراسة لضمان أمن أبي ولم يعد سوى في الصباح. قدمت للنساء بعض المناديل فأثلجت صدورهن وقضينا الليلة في رحاب هذه القبيلة.

في الصباح، توجهنا صوب جبل آخر يوجد في طريقنا، وفي منتصف النهار عبرنا جسراً وبينما كنا نروى بغالنا بعد أن جردناها من لجامها التحق بنا مجموعة من العرب لتسقي جيادها، كان عددهم حوالي -عشرون محملون بالأسلحة.

وبعد أن تركوا الجياد تشرب، سألونا عن رجلين غادرا الجزائر لبيع قسنطينة للفرنسيين. استنتجنا من كلامهم أنهم قبضوا أموالاً من مسلمين يسكنون مدينة الجزائر مقابل الوعد بضرب أعناقنا، قالوا: أنهما إثنان، شيخ وفتى سنقبض مقابل قتل الشيخ، أربعة آلاف قرش ومقابل قتل الفتى مائة قرش. لم يبق لدينا أدنى شك في أنهم يبحثون عنا وأن تلك هدية من بعض أصدقائنا بمدينة الجزائر. قلت في نفسي: يا إلهي! رأسي بخس الثمن إلى هذه الدرجة لا يساوي سوى مائة قرش بالمقارنة مع رأس أبي الذي يكلف مبلغاً لا بأس به!

رد عليهم القبائل، الذين يرافقوننا قائلين بأنهم لم يروهما وأنهم (العرب) حتى لو قابلوهم قد يكون قتلهم جوراً. وسألوهم ما إذا كانت الغاية من رحلتهم حقاً تلك التي يقولون عنها، لأنه يجدر بهم قبل قتلهم، التأكد من ذلك. ورد العرب قائلين: من الضروري العودة برأسيهما.

نحى العرب بعد ذلك نحواً ونحونا نحواً آخر. وبذلك نجانا الله من بطشهم وواصلنا طريقنا إلى أن وصلنا ديار بني عباس. وقبل أن نصلها توقفنا قليلاً بدشرة حذرنا سكانها بوجود قطع طرق عددهم يبلغ الأربعين بالسهل الموجود قبل معبر وادي عدوس الذي كان علينا أن نسلكه.

وعندما وصلنا إلى السهل المذكور دنوت من أبي وفي كل يد مسدداً عقدت العزم على استخدامه للدفاع عن حياتنا. وكنت على يقين وقتها من أنني لن أشاهد مدينة الجزائر ثانية وأنا، وإن افترضنا أن نجاتنا من القبائل وقطاع الطرق ممكنة، سنقع لا محالة فيما بعد ضحايا الحاجي أحمد. عند وصولنا إلى سفح المنحنى الذي يوجد في طريقنا قبل بلوغ نهاية السهل. لم نر بيننا وبين الوادي سوى غابة شاسعة. لمح القبائل الذين اصطحبناهم قطاع الطرق وهم ينزلون على صهوات جيادهم، فأسرعنا إلى تتبع مسلك وسط الغابة بعيد عن المكان الذي توقفوا فيه.

كان عددنا قليل لا يتجاوز عشرة أنفار وكنا مجردين من الأسلحة تقريبا. مشى القبائل في مقدمتنا وقالوا لي بلغتهم: لا تخف سنموت نحن قبلكم، لكن بعد موتنا أمركم لله. ومشينا هكذا عبر الغابة وأجسادنا ترتعش خوفا. أما عن السراق فهم معروفون جدا في الجبال تحت إسم لم أعد أتذكره للأسف. وهم يختفون بين جبل بني عباس والواد الذي يصب بالسهل، وقد اتفقوا مع قبيلة بني عباس على عدم التهجم على المسافرين قبل أن يصل هؤلاء إلى المعبر، ويعرفون بسفك دماء كل من يقطع تحت رحمتهم. تمكنا من اجتياز المعبر قبل أن يرانا أحدهم ولما وصلنا الضفة الثانية قابلنا أحد الرعاة، وبمجرد ما لمحنا رفع قميصه الصوفي فوق رأسه لكي لا يعرفه وفرّ هاربا دون التفكير في قطيعه. نادينا بأعلى أصواتنا يافلان نحن لسنا بقطاع الطرق، فقرر في نهاية الأمر التوجه نحونا وأن كان لا يزال يرتعش خوفا. لفت صراخنا انتباه قطاع الطرق إلينا فأخذوا يلوحون بأيديهم من الغضب وطلبوا منا أن نقفل راجعين نحوهم لكننا واصلنا تسلق التل الموجود أمامنا. وهكذا نجونا بفضل الله، مرة أخرى.

وصلنا ديار بني عباس* وأول من التقينا به هو شيخ كان يقوم برحلة الجزائر مثلنا فعرفنا ورحب بنا مقبلا رجل أبي وطلب منا كيف وصلنا إلى غاية قبيلته وما هو سبب ذلك. قلنا له أننا فررنا من الجزائر خوفا من الفرنسيين وأتينا ننوي الإستقرار بمدينة قسنطينة، فطلب منا النزول ببيته لكننا لم نتمكن من قبول ذلك لأننا كنا ننوي النزول عند شيخ القبيلة.

واصل السير معنا فمررنا بمنطقة بني عباس التي هي أجمل منطقة شاهدها وأنا أجوب بلاد القبائل. وجدنا بها مساجد وعمارات فاخرة مبنية بالحجر وعلى النمط الفرنسي إلى درجة أن حافة القرميد كانت عبارة عن مجرى خشبي تصب فيه مياه الأمطار لتتسرب إلى الخارج، ورأينا عندهم بنادق من صنعهم لا تختلف من حيث إتقانها عن تلك التي توجد بالجزائر. وعندما أردت رؤية الأدوات التي يستعملونها لاحظت أنها أدوات رديئة، مما زاد في دهشتي لبراعتهم رغم رداءة وسائلهم. عندما لفت انتباه أبي إلى ذلك قال: أه، لو كانت لديهم المعرفة والأدوات الملائمة لصنعوا أشياء عجيبة.

نزلنا عند شيخ عظيم، خفيف الروح فهمّ أبي بفتح حقيقته لتغيير (شاشه). أخرج كيسه ليأخذ منه المفتاح وعندما وضعه بجانبه كان بجواره طفل سرقه وهرب. لم يتكلم أبي عن ذلك لأحد غيري فأبلغت ابن الشيخ الذي أقام الدنيا وأقعدها على أبي بمجرد علمه بذلك، لكون أبي لم يشتكي. وأخذ يصرخ ويضرب من حوله إلى أن أتته باللص الصغير بعد مضي ساعة، مكتوفي الأيدي وأرادوا قطع رأسه. توسل أبي إليهم وكذا أنا ليفرجوا عنه ولم نتمكن من فك رقبته إلا بعد عناء كبير. فقال أحدهم: ماذا سيكون مصيرنا لو أخذت مثل هذه الأشياء من ديارنا؟ واصلنا الإلتماس والتوسل وقال أبي بأنه يتنازل عن الكيس للطفل. خلاصة القول أن الكيس قد بقي عند هذا الأخير وعندما عدنا إلى مدينة الجزائر أعيد إلينا بواسطة رسول ولم ينقص منه فلس.

وفي يوم الغد، قبل مواصلة رحلتنا، صعدنا إلى قلعة بني عباس، لم يسبق لي في حياتي أن رأيت مثل علو هذه القلعة الموجودة على قمة جبل والتي لفنا حولها كثيرا قبل الوصول إليها. لم يتمكن أبي من امتطاء بغلته واضطر إلى التسلق مشيا. كان عددنا حوالي مائة أولنا كان يمر فوق رؤوسنا إلى درجة

أنه يمكننا أن نمد يدنا ونلمسه، ذلك أن الطريق كان على شكل حلزوني كسلم عمود ساحة فاندوم بباريس. مشينا مدة ساعتين وعندما وصلنا القمة وجدنا سكان القلعة في ثياب جميلة وتعلو رؤوسهم -شيشان-بيضاء؛ مما جعلهم يتميزون على كل القبائل الذين صادفناهم في طريقنا، كان استقبالهم لنا جيدا وتناولنا معهم وجبة الغذاء. رأينا عندهم مدافع عتيقة لم ندر كيف صعدوا بها إلى هذا العلو ولم يكن أحدهم يدري بذلك أيضا. قالوا لنا: لو كان لدينا ما يكفيننا من البارود لما استطاع أحد أن يؤذينا.

إسترحنا لديهم إلى غاية منتصف النهار ثم قفلنا راجعين وسلكتنا نفس الطريق الذي اتينا منه لعدم وجود غيره. واصلنا السير طول اليوم وقضينا الليلة في رحاب قبيلة ولم نسمع أثناء الليل سوى زئير الأسود وضجيج نساء القبائل وهن يخرجن لأبعادهن بواسطة عصى ملتھبة كما نفعل نحن عندما نريد إبعاد كلاب.

توليت حراسة بغالنا طوال الليل وفكري مشغول بالأسود إذ كنت أخاف كثيرا منها. وعندما أسمع زئيرها أحسبه ليس ببعيد عني فأقف وأخرج مسدساتي وأحاول رؤيتها قبل أن تصلني.

واصلنا طريقنا على امتداد أيام عديدة إلى أن بلغنا منطقة البيبان، حيث استقبلنا شيخ المنطقة، الذي يدعي المشلول، بحفاوة بالغة واستضافنا أحسن ضيافة أثناء العشاء. لم يتمكن الأتراك، وهم في أوج قوتهم، أبدا من عبور التيبان بالقوة لأن الشيخ كان يسكن في أعاليها. سمّي هذا الممر الضيق هكذا لأنه عبارة عن جبلين منيعين يوجد بينهما طريق عميق هو في الواقع مجرى سيل. عندما رفعت رأسي لأرى قمة البيبان سقط شاشي من على رأسي. استغرق عبورنا لممر البيبان حوالي ساعتين وصلنا بعدها عند الشيخ المدعو المشلول. كان في غاية من الثراء. وسلطته جد ممتدة، ذلك أنه كان عند وصولنا عنده في حرب مع حاجي أحمد. رحب بنا كثيرا وجاء أبناءه وإخوانه لزيارتنا والجلوس معنا، وبعد الأكل غسلنا أيدينا في أواني من ذهب. هذا ما بعثنا على القول بأنه جد غني. كان أخوه مريضا بالرعشة فزارنا وأراد أن يعرف منا إذا كان هناك من بين الفرنسيين من يستطيع علاجه، وعندما قلنا له إن ذلك ممكن قال: لو يأتي طبيب إلى هنا لمعالجتي سأعنيه بقدر ما يريد له الله من الثراء.

أرد الشيخ أن يمنحني جوادا لا ذهب عليه إلى قسنطينة لأنه شاهدني فوق أحد جباهه وأيقن من أنني أحسن الركوب، قال: أنت فارس،، فلماذا إذا تركب الحمير؟ أجبت قائلا: هذه إرادة أبي لأننا كنا مقبلين على عبور الجبال والجياد لا تليق لذلك.

جلس معنا وتحدثت مع أبنائه الذين تكلموا عن مدينة الجزائر وخصوصا عن النساء الفرنسيات. أرادوا أن يعرفوا إن كنت أعرف الكثير منهن، فقلت، عن النساء لا، فقالوا: لو كان بإمكاننا الذهاب إلى موطنكم لاختطفنا بالتأكيد العديد منهن لأنهن أجمل من نساتنا.

عندما غادرتنا ديارهم سرنا في السهول عدة أيام إلى أن وصلنا قسنطينة حيث علمنا أن حاجي أحمد يوجد بمنطقة الحنانشة، دخلنا المدينة وقت العشاء ونزلنا عند بن عيسى. لم يكن هذا الرجل يعرف أبي معرفة شخصية لكنه سمع الكثير عنه ولم يكن يحبه، عندما وصلنا قدمنا أنفسنا للقصابجي الذي كان واقفا بالباب فأذن لنا بالدخول وهكذا دخلنا قسنطينة.

استقبلنا بن عيسى بأدب لكن دون حرارة، وأخذنا إلى المنزل المخصص لنا والذي كان واسعا رغم أننا كنا اثنين فقط. مكثنا عنده للعشاء ورغم آداب سلوكه الذي أملت عليه وظيفته فإنني استخلصت للوهلة الأولى أنه أمي ولا يتقن فن الحديث. وفي الغد كتب أبي إلى حاجي أحمد ليخبره بوصوله إلى قسنطينة ويعلمه بأن لديه أشياء هامة يريد إبلاغها إياه بصفته مبعوث. أما أنا فذهبت لأتجول في السوق. كنت وقتها مرتديا ثيابا فاخرة من الزي الجزائري استلفتها من أحد أصدقاء أبي لأنني لم أكن أحمل معي أي شيء عندما غادرنا الجزائر. بعد أن لبست الثياب توجهت إلى بيت بن حجوج، وهو أغنى مصرفي بقسنطينة وهو صديق حميم لأبي. بينما كنت أتجول اقتربت مني امرأة عجوز وقالت لي: يا غريب، تعالى اتبعني لدي ما أقول لك، فاتبعتها وأنا أقول في قرارة نفسي: ربما تكون وسيطة أمينة، وعندما انفردت بي قالت، ينبغي أن نلتقي هنا هذه الليلة لأقودك إلى امرأة سيد كبير. إنها حسنة لقد رأتك فأحبك وطلبت مني أن أحيطك علما بذلك. أجبته قائلا حييها من طرفي وقولي لها أنني لا أستطيع الخروج هذه الليلة لكنني سألقاها ليلة الغد. ألحت العجوز لكي أصبحها في هذه الليلة لكنني رفضت رفضا قاطعا. فلما أيقنت أنني متمسك بما قلت حييتني وانصرفت. بعد هذه الحادثة ذهبت إلى بيت صديقنا بن حجوج، الذي سر عما الفتة، ورويته عليه مع ذكر زوج السيدة المعنية. فضرب يده وصرخ: آه منهم أبناء الكلب!

يريدون قتل الأب بسبب الإبن، قلت: كيف ذلك؟ لقد وعدت العجوز بالذهاب معها ليلة الغد. فأجاب: حذاري من ذلك، حذاري! لو ذهبت معها ستكون السبب في موتك وموت أبيك. أعلم أن هذه المرأة لا تحبك ولم يسبق لها أن رأتك أبدا. هذا مجرد فخ نصبته لك بالتواطؤ مع زوجها لتسدرجك إلى بيتها، وعندما تكون بصحبته يدخل فجأة عدوك فيجذك معها، وبذلك تكون قد جنيت على نفسك بنفسك ولم يبق عليه الآن يطلب من حاجي أحمد، سيده، أن يقتلكما لإخماد غيرته. لن يصعب عليه إيجاد شهود زور لبلوغ مراده.

وعندما سمعت ذلك قررت عدم زيارة السيدة الحسنة. وفي اليوم الثاني، وجدت العجوز تنتظرني في المكان المتفق عليه فقلت لها: بلغ سلامي إلى سيدتك من طرفي وقولي لها أنها إذا كانت رأتني وأحببني فأنا لم أراها ولا أكن لها أي حب، وبالتالي لا ينبغي أن أرتكب ذنبا من أجل ذلك. ومهما يكن من أمر فإنني سمعت أن سيدتك عجوز هي الأخرى وعلى من يريد الذهاب إلى الجحيم أن يمتطي على الأقل جوادا لا حمارا: وأنا لا أريد أن أمتطي حمارا، فاذهبي أنت إلى الجحيم.

لنعد الآن إلى حكايتنا. لقد كنا على صلة وثيقة مع بن حجوج، قبل وصول الفرنسيين. إنه هو الذي أبلغني بأن البيت الذي خصص لاستقبالنا هو مكان يستخدم لتعذيب المجرمين وأنه قد تم فيه قتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص. منذ ذلك الحين هجر السهاد عيني.

لم أتفوه بكلمة واحدة لأبي فيما يخص هذا الأمر في ذلك اليوم، لكن عندما جلسنا إلى مائدة بن عيسى قلت له: مولاي علي، لا يمكنني أنا وأبي أن نناما باطمئنان في البيت الذي خصصتموه لنا. لذا نلتبس من سيادتكم السماح لعدد من الجنود بقضاء الليل معنا. لم يرفض لي هذا الطلب. وعندما طلب

مني أبي سبب هذا الإلتماس، رويت الحكاية على مسامعه. فقال: أنت جبان! فأجبت: لا يا أبي، لكن الله لم يأمرني بالنوم في بيت سفكت فيها دماء أكثر من ثلاثة آلاف شخص.

اخترت جزائرين كانوا في الخدمة بقسنطينة ليبقوا في معيبتنا بالبيت ومكثنا هكذا طيلة ثلاثة أيام وصلنا بعدها جواب من حاجي أحمد يطلب فيه منا أن نذهب لملاقاته.

أعطانا بن عيسى خيمة رثة لم تعد صالحة للإستعمال وأمر أربعة من رجال السباحي بمرافقتنا. انطلقنا في اتجاه منطقة الحنانشة لأننا كنا نعلم أن حاجي أحمد يوجد بها. استقبلتنا كافة القبائل التي مررنا بها أحسن استقبال. وقد كانوا مضطرين لإستقبالنا بهذه الكيفية خلافا للقبائل الذين كانوا يحسنون استقبالنا تلقائيا وبصفة عفوية.

لقد نسيت أن أتكلم عن حفاوة القبائل فعندما كنا نزل بديارهم كان أطفالهم يبدون فرحة غامرة، وعندما أردنا معرفة سبب ذلك، كان الجواب أنهم كلما حل بديارهم ضيف إلا وأكلوا اللحم لأنهم لا يأكلون في سائر الأيام إلا الخبز بالحليب. أما العرب الذين يسكنون ضواحي قسنطينة فكانوا يعطوننا كل ما نطلب وذلك خشية غضب سيدهم. إذ كانت كل خيمة تستقبل المسافرين بالتناوب الإجباري. تلکم هي تقاليد تختلف عن التي عهدناها لدى القبائل. وواصلنا طريقنا الذي كان في الغالب يمر عبر سهول لا جبال فيها.

عند اقترابنا لمخيم حاجي أحمد أتى هذا الأخير لملاقاتنا على رأس عدد كبير من جنود السباحي والخدم الذين يقودون جوادين مسروحين، وعند وصولنا اتخذت جانبا من الحذر الشديد إلى درجة أنني تركت مسدساتي مشحونة جاهزة للإستعمال. نزلنا من على مطايانا فنزل حاجي أحمد ومن معه من حاشيته، وقبّل أبي مبديا له احتراما شديدا، ومع ذلك بقيت ملازما الحذر إزاء هذا الرجل. طلب الباي من أبي أن يمتطي الجواد فرفض، ثم أمرني أنا بركوب الفرس ففعلت. وإلى غاية يومنا هذا لم يسبق لي أن رأيت أجمل من الجواد الذي امتطيته.

وصلنا مع الطريق إلى المخيم. إذ كان المخيم منصوبا بنظام محكم. كل شيء كان في المكان المناسب. كان المكلفون بمهمة نصب المخيم يتقنون تماما عملهم.

قبل الكلام عن الأشياء التي صادفتنا في هذه المنطقة ينبغي أن أتکلم لكم بإيجاز عن حاجي أحمد. - كنت كثير الإعجاب به، كان جد قصير القامة، عيناه سودوان واسعتان كالفتناجين، أنفه قصير ومقوس، لون بشرته أسمر من حرارة الشمس، لأنه أبيض أصلا. إنه رجل كثير الإعتناء بهندامه، بالغ النظافة. يده قصيرتان وأنيقتان وكل سلامية من سلاميات أصابعه مكسوة بشعر أسود وأملس، مما يجعل منظرهما يسر الناظر. أما عن ثيابه فكانت شبيهة بتلك التي يرتديها الجزائريون وكانت كلها مطرزة بالحرير. وفوق الثياب، يرتدي حائك ملفوف حوله بأناقة. وحزامه من الكشمير، وكذا شاشه. كان أسود الحاجب والذقن، كثيف الشنب، كان شنبه طويلا إلى درجة أنه كان أحيانا عندما يفرق في التفكير يضعها تلقائيا تحت اللفة الأولى من شاشه ويلتمسها بين أصابعه. فوجئت بكونه رجلا فتيا وليس عجوزا كما يقال. أعتقد أن سنه لا يتجاوز الأربعين. كانت عيناه تلمع ببريق شرير كأعين الأسود. لقد كان

يحدق النظر في شخصي، عندما كنا جالسين حول مائدته، حتى فقدت الشهية وأخذت أرتعش عفويا. من الأكيد أن نظراته كانت نظرات رجل خطير. ورغم ذلك ما زلت أجد له الكثير من الجمال.

عند وصولنا المخيم، سأل عن مكان خيمتنا فدلوه عليها ولما رآها ممزقة ومزيتة غضب أشد الغضب وأخذ يشتم، ثم قال: ستكون بمثابة مرحاض لسيدي حمدان! أنصبوا له الآن خيمتي الصغيرة. الخيمة المعنية هي تلك التي حملناها معنا وهي لنجل بن عيسى. عندما علم هذا الأخير بخبر استعمالها كمرحاض سخط واعتبر بأن نية حاجي أحمد، من خلال هذا التصرف، هي إهانته.

عندما دخلنا الخيمة لم نتمكن من الإستراحة لأن الباي قد أرسل أحد خدمه لاستحضارنا. وهكذا ذهبنا عنده ونحن في غاية التعب والتلوث بالغبار. لما دخلنا عليه. حينئذ وأردنا أن نقبل يده فرفض وقبّل أبي على كتفيه. مددت يدي لأخذ يده وتقبلها فضرني بلطف على يدي فقبلت المكان الذي لمسني عليه. وهكذا كان الأمر طيلة الأيام التي قضيناها في رحابه. لقد خصّنا بشرف عظيم من خلال مثل هذه المعاملة. قال: هل جعتم؟ أجبنا: قليلا ما: فأمر خدمه بأطوار الأكل. واحضروا لنا نصيبنا من الأكل الذي يتمثل في صحن من الزيتون الأسود الرائع ورغيف من خبز الشعير.

هناك عادة عند المسلمين مفادها أن يقدم القائد صحنا من الزيتون لمن يريد قتله، وذلك قبل تنفيذ الحكم فيه. كأن المعني بالأمر يعرف مصيره بمجرد ما يرى الزيتون الذي يدل على أنه سيموت في نفس اليوم.

- عندما رأيت حبات الزيتون الملعونة أبقنت بأننا على وشك الموت. وتجنبنا لفت انتباه أبي إلى ذلك، لكنني لم أتمكن من أكل ولو زيتونة واحدة. سألني أبي عن سبب امتناعي عن الأكل فأجبت بصوت منخفض: لقد اهتز قلبي بمجرد رؤيتي لهذا الزيتون.

قال: ليست هناك مشكلة، ربما لا يوجد لدي الرجل غير ذلك. فالساعة لا تزال بعيدة عن منتصف النهار وفي وقت كهذا لا يوجد أي شيء جاهز عنده. وهكذا بدأت أكل بعد أن سلمت أمري لله رغم أن الثقة غير متوفرة.

بقينا نتحدث مع حاجي أحمد فلمست فيه رجل العقل المرجح والرأي السديد واعجبت بفكره وأسلوب حديثه.

كان يختلف عن عبد القادر وأمثاله لأنه كلما تكلم عن الدولة الفرنسية كان مجردا من كل تعصب، بل وكان يقدر دراية الفرنسيين وتكتيكهم وشجاعتهم. كان بعيدا كل البعد عن الكلام بأسلوب القادة الذين يوجدون في مدينة الجزائر إذ كان يدرك تماما أنه لا يمتلك قوة كافية يواجه بها فرنسا؛ غير أنه كان يعتقد بأن الحيلة كفيلة بإعطائه بعض التفوق عليها.

قضينا معه السهرة وفي الغد أعطاني فرسا. وكنا باستمرار معه، نركض بجانبه ولا نغادر مطايانا إلا عندما يغادر جواده. وقبل شروق الشمس نظوى الخيام ونحملها على ظهر الجمال التي تسير في مقدمتنا تحت حراسة المشاة. ولم يبق مع الباي سوى جنود السباحي.

بعد طي الخيام يخرج الباى من خيمته فيفرش الخدم زريبة ووسادة، -يجلس عليها قرب خط جياده. وتجتمع حوله كافة الشخصيات البارزة كالباش ساعى، والآغا وصهره، وبعض أقاربه وكذ مهرجه.

وكنا نحن كذلك، وبعض شيوخ الصحراء حيث ننضم إليهم فنتناول فطور الصباح ونشرب القهوة وندخن بالغليون. وبعد ذلك يأمر بركوب الجياد فترى جند السباحى على ظهر مطاباهم في رمش عين مصطفى في صفين يواجه الواحد الآخر وبينهما مسافة لا تتجاوز ستة أقدام. ثم يتم إحضار جياد الباى ومن معه فينطلق الجميع على انغام الموسيقى بين الصفين وعلى رأسنا حاجى أحمد بين اثنين من الشاوش، وهو يحيى بيده يمينا وشمالا وكلما التفت الى جهة صاح الشاوش الموالي بصوت عال ويتوعد: السلام عليكم ورحمة الله! وبمجرد سكوت الأول يردد الثاني التحية إلى أن ينتهي حاجى أحمد من التحية.

-يمشي حاجى أحمد دائما في المقدمة وجياده مروضة على محاكات تحية صاحبها فكلما أدار رأسه ووضع يده على قلبه للتحية، أدار الفرس رأسه في نفس الاتجاه ورفع قدمه. والله، لقد بقيت متعجبا في ذكاء هذه الحيوانات. ويبقى الأمر كذلك إلى أن يصل الباى إلى نهاية الصف ثم يأخذ الفرسان شكل خط قتال يكون حاجى أحمد وحاشيته والموسيقى في وسطه، بعد ذلك يبدأ الفرسان في الخروج إثنين إثنين من الأجنحة. واحد من كل جناح -يقطعان ركضا حوالي عشرين قدما إلى الأمام مقدمة خط السير ثم ينطلقان بسرعة في اتجاه بعضها البعض وعند الوصول إلى مستوى الباى يفرغان شحنتي بند قيمتهما في الهواء بينما يواصل الباى استفزاز جواده برشاقة إلى أن يرهقه، وهذا ما يحدث عادة في ظرف أقل من عشرة دقائق. عندها، وبإشارة منه، يأتيه جواد آخر ينطلق على ظهره. عنده ما يقرب من مائتي فرس. وأحسن الجياد في أفريقيا توجد في حوزته ولا أحد فيها يشبه الآخر. ولكل واحد من هذه الجياد اسمه يناديه به، وقد وعدني بالسماح لي بامتطاء الفرس الذي يعجبني من هذه الجياد. واصلنا السير هكذا طيلة 25 يوما، أغرقنا الباى فيها تشريفا لكنه رغم كل الخير الذي خصنا به لم أثق فيه لحظة واحدة.

ذات يوم عندما كنت في الصف قرب رأس فرسي بلمس مؤخرة جواده، اقترب منى ابن شيخ الصحراء وناداني باسمي، وعندما سمعت النداء تأخرت قليلا لأسمعه فقال لي: أشحن بندقيتك بعدما فعلت ذلك خرجت في الصف لتتمكن من الإنطلاق ركضا كما يفعل سائر الفرسان فقطعنا الخط بسرعة وأفرغنا البندقية فوق رأس الباى ثم رجعت إلى مكاني في الصف.

وبمجرد عودتي أتاني عجوز وقال: السيد علي، اترك لي المكان لأكلم سيدنا. تركت له المكان لكن بنوع من الإحتقار ورفضت إبداء أدنى علامة من علامات الإحترام.

اقترب من حاجى أحمد وحياء، فقابله الباى باحترام بالغ يليق بمقامه. عندها علمت أنه شخصية بارزة فانسحبت صاعرا. أخذ يهمس في إذن الباى إلى أن أخذ وجه هذا الأخير لونا شاحبا كالليمون وبدأ يرتعش من رأسه إلى قدميه. فابتعد عنه الصف بكامله. ووخر الباى جواده فتقدم بعض الخطوات إلى الأمام، وبقي هكذا دون الكلام مع أحد.

ولما رآه العرب هكذا، أخذوا يركضون اثنين اثنين كعادتهم. وبينما كانوا يركضون عشر فرس أحدهم فكاد يسقط على الأرض فصاح حاجي أحمد صيحة رعب رفقا بالفارس. ولما رأيته يخشى هكذا عليه حياه رجاله قلت في نفسي أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون شريرا كما يقال بل بالعكس، لديه حس مرهف كما يتبين من خلال ما حدث.

وعند وصولنا المخيم، وبعد ما نزلنا من على جياننا، أرسل من ينادينا لتناول القهوة معه. وعند دخولنا خيمته وجدناه محاطا بالعرب، ومن بين هؤلاء العرب يوجد الفارس الذي كاد يسقط من على ظهر حصانه. فقلت له: لقد كدت تسقط هذه الصبيحة! أجابني قائلا: نعم! ووصلنا حديثنا أثناء شرب القهوة. كنت جالسا بجانب الباي وأبي بالجانب الآخر. وبعد شرب القهوة التفت الى خادم كان واقفا وراءه ويداها الواحدة فوق الأخرى على بطنه في احترام، قائلا: نادي على 50 جندي سباحي! وبمجرد ما سمعت هذا الأمر ارتعشت وقلت في نفسي: يا إلهي! لقد قربت آخر لحظة من حياتنا. كنت على يقين من أن هؤلاء الجنود سيأتون للقبض علينا. لكن بعد التفكير أدركت بأن هذا العدد يفوق ما ينبغي للتمكن منا.

عندما عاد الخادم وأخبر سيده بأن الجند ينتظرون وراء باب الخيمة صاح الباي: ألقوا القبض! فدخلوا ورأيت أنهم كانوا يعرفون جيدا على من ينبغي إلقاء القبض. أمسكوا على كافة العرب الذين كانوا معنا بما فيهم الشخص الذي عشر جواده، كان عددهم 25.

أخذ هؤلاء يصرخون قائلين: هذا جور وطفغان! لكن لم يبال أحد. فكرت في قرارة نفسي أن الباي رجل غريب: هذه الصبيحة أشفق على الفارس عندما كان على وشك السقوط والآن يلقي عليه القبض، والله وحده يعلم ما سيحدث له.

حدث ما كنت أتوقع إذ نادى حاجي أحمد على مجموعة من الشواش وقال لهم: لا تضعوهم مع بعضهم في الخيم واحذروا ألا يفلت منكم أحد منهم. في المساء، وبعد العشاء، جاءني بن شيخ الصحراء* وقال لي: ياسيد علي، هل رأيت هؤلاء الرجال الذين ألقى عليهم القبض اليوم؟ فأجبت: نعم! فقال: ستقطع رؤوسهم في منتصف الليل، هنا قرب خيمتكم، لأن خيمة الإعدام بجواركم. فوجئت بهذا الكلام، فقلت: ماذا فعلوا؟ إن مسألتهم خطيرة سأحكي لك غدا ما فعلوه.

رويت كل هذا على أبي وقلت له أن إعدام المساجين سيتم في الخيمة المجاورة لنا وأنني لن أتمكن من النوم دون مشاهدة ذلك. فقال لي: لن نذهب لمشاهدة ذلك. ولن نخرج. وحوالي منتصف الليل لم أستطع أن أنام فاغتنمت فرصة نوم أبي الذي بدأ يشخر دون أن يبالي بما سيحدث حوله، وتسلمت تحت الخيمة نحو الخارج.

جىء بكل المحكوم عليهم إلى مكان تنفيذ الإعدام* مكتوفي الأيدي وهم يصرخون باستمرار: لا إله إلا الله محمد رسول الله. سقطت رؤوس هؤلاء التعساء الواحدة تلو الأخرى أمام مشهدي. كانت ضربة واحدة خفيفة من الشاوش تكفي لقطع الرأس. لم يتم سوى إعدام 24 سجيناً. وعند طلوع الشمس جاء بن شيخ الصحراء وقال لي: لقد أمسكوا بالسجين الذي فرّ. وعندما يستيقظ سيدي سنلحقه برفاقه.

خرجت وحاولت مقابلته لأسأله كيف لم يتمكن من الهروب فوجدته تقريبا مجنوناً. وعندما طرحت عليه السؤال قال: ياسيدي، لقد تخلصت من قيودي بالليل فهرت واختفيت بالجبل. عندما سمعت ذلك صرخت فيه: لماذا إذا لم تبق بالجبل؟ أنت تعرف أن حاجي أحمد لن يستطيع إيذاءك ما دمت هناك.

أجاب: نعم، لكن حلول أجلي أفقدني صوابي فلم يبق لي من العقل شيء. لم يعد لي صوابي إلا عندما وجدت نفسي بالمخيم، والآن حاول يا سيدي أن تحصل لي على العفو.

لما سمعت ذلك أحسست بانقباض في قلبي فسارعت إلى لقاء أبي وسردت عليه هذا الحدث. قال أبي: أخبره أنه إذا تمكن مرة ثانية من كسر قيوده يمكنه أن يختفي عندي. وقتها سيصبح من الممكن لي أن أطلب من الباي أن يعفو عنه ولعلي سأنجح في الحصول على ذلك.

عدت إلى السجين وأبلغته بذلك فأراد أن يسلك بي، مما اضطرني إلى الابتعاد عنه، أتاني السباحي الذي كان يحرسه وأخرجني من الخيمة. بقيت أنتظر بخوف قرار حاجي أحمد الذي كان لا يزال نائماً. عندما استيقظ أمر بقطع رأسه على الفور. سألت عن الباي لأعرف ما إذا كان قد خرج أم لا لأتوسل إليه لعله يعفو عن هذا المسكين فنصحني المقربون منه بعدم التدخل في قضية كهذه لأنها جد حساسة. وأعطى الأمر للمشروع في تنفيذ الحكم فوراً وأخرج الرجل. كان المسكين يبذل قصارى جهده للهروب نحو خيمتنا لكنه لم يتمكن من ذلك لأن الذي كان ماسكاً به كان قوياً كالخنزير. بضربة واحدة أسقط رأسه فوق ركبته.

عندما عاد إلى الولد سألته عن الجريمة التي ارتكبها الذين نفذ فيهم حكم الإعدام فأخبرني بأنهم كانوا ينوون قتل حاجي أحمد وأنا من بينهم من كان لديه مسدس مشحون بالرصاص. والواقع أنه عندما تم إلقاء القبض عليهم وتجريدهم من سلاحهم تبين أن مسدساتهم كانت بالفعل مشحونة بالرصاص وهذا أمر ممنوع.

كان السبب في إعدامهم ذلك الشيخ الذي طلب مني أن أترك له مكاني قرب حاجي أحمد فأسأت استقباله، علمت فيما بعد أنه شيخ الحنانشة. يا إلهي! لقد كان وجهه يشبه فعلاً وجه ثعبان. منذ ذلك اليوم اعتاد على الأكل معنا يومياً ولم أتمكن من التعود على وجهه الملعون.

بقينا مع حاجي أحمد لمدة 25 يوماً انتهت على إثرها مقابلات أبي مع الباي وعدنا إلى قسنطينة. لما وصلنا نزلنا عند الكاتب الأول للباي ومكثنا لديه طيلة الثلاثة أيام التي قضيناها في المدينة. وفي اليوم الذي غادرنا فيه قسنطينة أصابني الحمى واشتد مرضي لكنني اضطررت إلى السفر - لم يسبق لي أبداً أن قضيت رحلة كهذه إذ كانت معاناتي أشد مما يمكن للعقل تصوره. وعانيت الكثير بسبب ذلك. فتارة كنت أتصبب عرقاً وتتملكني الرعدة وطوراً تجتاح جسدي الحمى فيغمى عليّ. وعندما أرتعش أبقى على ظهر بغلتي، لكنه عندما تعود الحمى أبقى في مؤخرة القافلة وأنزل من على ظهر البغلة لإستريح في الظل الذي تكونه بجسمها وأبقي هكذا دون أن أدري ما أفعل.

وكلما حدث ذلك كان أبي يلاحظ غيابي فيرسل أحد رجاله للبحث عني فيجدني في الحال التي وصفتها ممدوداً في ظل بغلتي. والغريب في الأمر هو أنني مررت بمثل هذه الحال مراراً دون أن يعثر عليّ أسد أو أي وحش آخر فيفترسني.

بقيت هكذا طيلة الرحلة ولم أتذكر شيئا مما حدث إذ كنت كل الوقت كالمجنون لا أرى سوى معاناتي، كانت خشية أبي على حياتي كبيرة. كان هو الذي يساعدني على امتطاء بغلتي بدل أن أساعده أنا. كلما أتذكر، هو وصولنا ذات ليلة إلى دشرة نزلنا بها. أعطانا أهلها تينا وحليبا ولم أتمكن بسبب مرضي من الأكل أو الشرب. وبمجرد ما وصلنا نمت وعلى الساعة الواحدة ليلا أيقظوني لتناول العشاء. وعندما أقترب لأرى ما قدم لنا وقعت عيني على صحن مملوء بالكسكسي تعلوه طبقة بيضاء. لم أعرف طبيعة هذه القشرة فسألت أبي ما هي هذه القشرة البيضاء؟ كان جوابه أنه لا علم له مثلي. مددت يدي فعرفت أن الأبيض عبارة عن قشرة سميكة كإصبعين من الشحم وتحتها الكسكسي. إشماز قلبي وانسدت نفسي. بعد ذلك أتى صاحب البيت وعلى رأسه صحنان، الأول فيه دجاج محمر والثاني به لحم مغلى، وقال: أبسطوا أيديكم. لما بسطناها أعطى كل واحد منا ثلاثة أرطال من اللحم على الأقل، أخذت نصيبي وسارعت إلى إعطائه للعرب الذين كانوا معنا قبل أن أعود إلى النوم اعتقادا مني بأن ذلك أحسن لي بكثير من الأكل. في الغد غادرنا المكان وواصلنا طريقنا إلى يوم وصولنا إلى عنابة. وعند وصولنا المراكز الأمامية للفرنسيين أوقفنا الجنود لأننا كنا رفقة عدد كبير من العرب، اقترب أبي من الفرنسيين وأعطاهم ترخيصا سلمه إياه دوق روفيفو. وفور إطلاعهم على الترخيص تركونا نمر مع العرب الذين كانوا معنا بعد أن قلنا أننا نضمن سلوكهم. ذهبنا عند الجنرال وبعده نزلنا عند الوكيل العسكري أين زارنا يوسف الذي رحب بنا كثيرا لأننا كنا نعرفه. وفي خظم احتفائه بنا قال لي: لدي بغلة جميلة سأهديها لك، فأجبتة قائلا، أنه لا يمكنني أن آخذها معي لكنه بإمكانه أن يرسلها إلى عنواني. ورغم وعده بذلك لم يصلني شيء وأنا من ناحيتي لم أعمل حساب وعده ولم أخذه مأخذ جد.

قضينا عشرة أيام بعنابة التي تفاقم فيها مرضي وزادتني زيارات الأطباء تعباً فضلاً عن عدم جدواها. وأخيراً سافرنا على متن سفينة فرنسية في اتجاه مدينة الجزائر.

وأثناء إبحارنا أعاد الله لي عافيتي وبعد مضي سبعة أيام نزلنا بمدينة الجزائر. لم يكن في المدينة من كان يفكر بأن عودتنا ممكنة، إلى درجة أن أعضاء أسرتي أرادوا إرتداء الأسود حزنا علينا. وابتهج الجميع بعودتنا سالمين، وكنت مشتاقا إلى العودة إلى نمط معيشتي بالجزائر لكنني بمجرد ما رجعت لم أحتمل تغيير عاداتي الغذائية وسقطت مريضا ثانية. وهكذا بقيت في الريف دون أن أعود إلى المدينة. مما حمل بعض سكان المدينة على الاعتقاد بأن أبي منعني من العودة خشية مني على إفشاء أسرارها، وهذا غير صحيح إطلاقا.

وبعد ثلاثة أيام من الراحة تلقى أبي الأمر بالعودة فورا إلى قسنطينة، من روفيفو. وكنت وقتها على سريرى عندما قال لي أبي: أتريد العودة معي إلى هناك. فأجبتة: سمعا وطاعة، وبعد جهد كبير قمت. عندما رأت أمي أنني أتأهب للرحيل أخذت تصرخ وتقول لأبي: أتريد قتل ابنك؟ أجابها قائلا: ليس به شيء، ستشفيه الرحلة.

عارضت والدتي بشدة فكرة رحيلي وانتصرت في نهاية المطاف وبقيت معها بعد أن بكيت عندما رحل أبي وتركني.

أخذ والذي معه زوج أختي سيدي اسماعيل وسافر إلى عنابة على متن السفينة البخارية، وهناك استقبله الشيخ الذي يسكن شواطئ البحيرة وأعطاه مجموعة من الفرسان لتصحبه إلى قسنطينة. استغرقت إقامته بها شهرا كاملا عاد بعده إلينا بصحة جيدة بفضل الله وغمرتنا الغبطة لدى عودته. علم أبي بعد عودته من هم الأشخاص الذين أباحوا دمنا مقابل المال وذهب لزيارتهم وتناول القهوة معهم كما لو كانوا أعز أصدقائه.

وبعد ذلك بقليل غادر الدوق روفيثو الجزائر في اتجاه باريس، إذ لم تمضي أيام كثيرة قبل أن يعلن أبي هو الآخر عن نيته في الرحيل إلى باريس للمطالبة بالتعويضات المستحقة له مقابل ممتلكاته والمساهمات الإجبارية التي اضطر إلى دفعها. وهكذا أخذني معه إلي باريس حيث أراد الله لنا أن نلتقي بكم، ذلكم هو كل ما في الأمر. تحياتنا! علي بن سيدي حمدان خوجة.

المراجع

1- Saulcy (Félicien de), souvenirs d'un voyage à Constantine à travers les Montagnes, Metz. 1838.B.N. de Paris. 8 LK.8. 41

2- R.A 57 (1913), P. 102.

3- Moniteur Algérien, 30 Septembre, 1836

4- عبد الجليل التميمي، نشاط حمدان خوجة في باريس واستنابول من أجل القضية الجزائرية. المجلة التاريخية المغربية، 7-8 (1977)، ص 13-136

* كان هذا الشخص مساعد حاجي أحمد، ويقال أنه انتحر عند احتلال قسنطينة، لكنه حي وفي صحة جيدة بمدينة الجزائر.

* حرس القصبّة.

* باش ساعى: مكلف بالإعتناء بالجياذ وكذا البيطرة.

* الشاوش: رجل طويل القامة قوي البنية يتولى التحية نيابة عن الباي ونقل أو أمره ... وقطع الرؤوس التي يأمر بقطعها، وهي عادة تركية الأصل.

* كان سن هذا الطفل، الذي تبناه حاجي أحمد، 12 عاما.

* المكان عبارة عن جلد ثور مفروش في وسط الخيمة، يوضع المحكوم عليه فوقه على ركبتيه في النص الأصلي: اللّي بركنْ عليه حلوف.

* سورة البقرة، الآية: 195.